المستوى التركيبي

أ.د. عشتار داود محمد

يدرس المستوى التركيبي النصَ كاملاً انطلاقاً من الجملة النحوية، أي إن الجملة لا تؤدي إلى نفسها، وإنما إلى النص بشكل شمولي. فعلى الرغم من أن الكلام عن التركيب، لا بد من أن يجعلنا نبدأ بالكلام عن الجملة، إلا أننا لابد من أن ننتقل منها إلى ربطها بالسياق الكلي للنص الأدبي.

من المعلوم أن الجملة تتألف من مسند ومسند إليه، وهناك ترتيب طبيعي لها، وعندما يتخلخل هذا الترتيب تتحقق ظاهرة معروفة بلاغياً هي (التقديم والتأخير)، وعند حذف ركن رئيس في الجملة تتولّد ظاهرة (الحذف) التي هي بخلاف (الذكر)، أما عند الربط بين الجمل فيتحقق (الوصل)، في حين إن عدم الربط النحوي يُحقق (الفصل)، وإن تغير استعمال الضمير يولّد (الالتفات)، كما من الممكن أن يجري توظيف أساليبَ مختلفة مثل الاستفهام والنداء والتمني والترجي... إلخ، لأغراض تخدم النص. وفضلاً عن هذه الظواهر ثمة ظواهر تركيبية أخرى، لا مجال لذكرها. المهم أن نخرج بنتيجة أن الظواهر النحوية، لم تأتِ اعتباطاً، وإنما لخدمة المعنى الشمولي للنص، الذي نصل له عند قراءة النص بشكل كامل.

إنموذج تطبيقي

- تعالَيْ....

صباحاً جديدَ الضياء

يوجِّدُ في دربِه الزاحفين..

- تعالَيْ..

لهيباً عنيدَ الأوار

يردُّ الترابَ مع الغاصبين

من اللافت للانتباه التشابه بين بنيتي المقطعين السابقين من الناحية النحوية، وهذا التشابه النحوي يسمى (التوازي التركيبي)، وهو تشابه البنى النحوية، دون اشتراط تكرار الكلمات ذاتها. ففعل الأمر (تعالي) في المقطع الأول، يقابله فعل أمر في المقطع الثاني، والحال (صباحاً) في المقطع الأول، يقابله حال (لهيباً) في المقطع الثاني، والنعت في (جديد) يقابله نعت أيضاً في (عنيد)، والمضاف إليه في (الضياء)، يقابله مضاف إليه (الأوار)..... وهكذا يستمر التشابه النحوي، حتى ينتهي المقطعان.

وهذا التركيب المتشابه يشي بنوع من الرتابة الدلالية، التي تجعل من الواقع اليومي متشابهاً، مما يجعل من التغيير ضرورة حتمية، لذا ينادي الشاعر (الوحدة) بالفعل (تعالَي)، بعبارات قصيرة متشابهة من شدة الحماس واللهفة لها، فصوّرها وكأنها شاخصة للعيان، من الممكن مخاطبتها والتفاهم معها، فإن تشخيص الوحدة أولاً ومخاطبتها ثانياً، يؤدي إلى دلالة استقدامها وكأنها قد تحققت فعلاً، وهو غاية الرجاء.

لكن التوازي التركيبي المتحقق في السطر الثالث من المقطع الأول تخلخل نحوياً، بوجود ظاهرة (التقديم والتأخير) في قول الشاعر: (يوحّد في دربِه الزاحفين)، فمن الواضح هنا أن هذه الجملة الفعلية التي يتصدرها فعلٌ متعدٍ هو (يوحِّد)، قد تأخر مفعولها (الزاحفين) إلى ما بعد شبه الجملة (في دربه)، التي تقدمت وحقها التأخير.

أما السطر المقابل له في المقطع الثاني (يردُّ الترابَ مع الغاصبين)، فعلى الرغم من تشابهه النحوي مع الأول، بوجود المكونات النحوية نفسها، لكنه جاء بالترتيب النحوي الطبيعي، من دون تقديم أو تأخير، من خلال جعل شبه الجملة من الجار والمجرور في النهاية هذه المرة.

وهذا التفاوت في الترتيب بين الجملتين في المقطعين، أدى إلى إحداث تفاوت في دلالتيهما، إذ أن التقديم الحاصل لشبه الجملة في المقطع الأول، أدى إلى تسارع دلالي ملحوظ، لاسيما أن الدلالة العامة للنص كانت اللهفة في الوصول إلى (الوحدة)، وكأن الشاعر في تقديمه لعبارة (في دربه)، قد أسهم في تسريع الوصول للوحدة عبر هذا الدرب، لكون العبارة قد تقدمت على لفظة (الزاحفين) التي تومئ ببطء المسير، لذا كان عليه حسم الموضوع ولو نحوياً، من خلال هذا التقديم. وإذا ما تمعنّا في هذه الجملة كاملة بعد ربطها بالسياق، نجدها تبتدئ بالفعل (يوحد) إذ يقول: (يوحِّدُ في دربِه الزاحفين)، ومن المعلوم أن (يوحّد) فعلٌ مضارع جاري التحقق في الوقت الحاضر، وليس فعلاً ماضياً تحقق وانتهى، وهو ما يومئ بتعزيز دلالة تحقق الوحدة أيضاً.

أما السطر الأخير (يردُّ الترابَ مع الغاصبين)، فالترتيب فيه طبيعي دون تقديم وتأخير، وهو ما خدم الدلالة نفسها، فبعد تحقق الوحدة في المقطع السابق، تعود الأمور لمجاريها في هذا المقطع، ويعود التراب لأهله، وهو ما يدل على الاستقرار، لذا لا حاجة هنا لخلخلة الترتيب

أوالتسارع. ومن الواضح أن العبارة انتهت بلفظة (الغاصبين)، فإن ورود هذه الكلمة في النهاية فيه دلالة الاستبعاد لهؤلاء الغاصبين، لاسيما وأن الكلمة أتت مجرورة بحرف جر، زيادة في تعميم دلالة عدم فاعليتهم في تحقيق أي شيء.